بناءُ السردِ في يتيمة ابن زريق
" بين النص الشعري والنصية المتعالية الشارحة"

د. محمد حسانين إمام
كلية دار العلوم جامعة المنيا

المستخلص باللغة العربية:

يعد ابن زريق أحد الشعراء العباسيين الحاذقين، رغم أنه لم يترك لنا إلا قصيدة وحيدة (اليتيمة)، تلك القصيدة التي تعد من عيون الشعر العربي؛ ولهذا، تخير الباحث موضوعًا عنها، عنوانه: (بناء السرد في يتيمة ابن زريق" بين النص الشعري والنصية المتعالية الشارحة") هي الأولى من نوعها في تطبيق نظرية (السرد) عليها؛ فلم يعثر الباحث على أي دراسة سردية لتلك القصيدة، وقد هدف الباحث من دراسته إلى الجمع بين القدم والحداثة؛ بتطبيق تلك النظرية النقدية الحداثية على تلك القصيدة، ببيان عناصر البناء السردي، رغم أن السرد في الشعر القديم قليل، مقارنة بغيره. وقد ساعد في الكشف عن هذا، توافر بعض معطيات النصية المتعالية، وهي (النصية الشارحة) التي جاءت في نص تاريخي نثري؛ فجمع الباحث بينهما في بعض العناصر؛ ومن كل هذا، اهتدى الباحث إلى نتائج عدة، منها أن النصية الشارحة كانت وثيقة تاريخية للشاعر وقصيدته وحَدَثِ وفاته، كما تضمنت أفكارًا أخرى بينت مناسبة القصيدة، إلى جانب بقاء الحضور الذهني للشخصية البطل (زوجة الشاعر) مما جعل الصراع النفسي على اختلاف أنواعه في جل القصيدة، ولهذا تأكد للشاعر أهمية المكان الوطن جغرافيًّا ونفسيًّا؛ فالموطن الأصل للشاعر كان محل السعادة الأسرية، رغم قلة ذات يده فيه.

Abstract :

Ibn Zurayq is one of the brilliant Abbasid poets, although he left us only one poem (the orphan). That poem is from the eyes of Arabic poetry. Therefore, the researcher chose a topic about it, entitled: (Building the narrative in the orphan of Ibn Zureik" between the poetic text and the textual explanatory of metatextuality). The researcher did not find any narrative study of that poem thereby, this study is the first of its kind in the application of the theory of (Narration) to that poem. The aim of this study is to combine antiquity and modernity by applying this critical theory to that poem, by explaining the elements of the narrative structure, although the narrative in ancient poetry was few compared to others. This was helped in revealing by the availability of some textual transcendent data, namely (Metatextuality). Which came in a prose historical text. Thus, the researcher combined them in some elements. The researcher found that the explanatory text was a historical document of the poet, his poem, and his death. In addition, that poem showed the occasion of the poem along with the survival of the mental presence of the character of the hero (the poet's wife), which made the psychological conflict of all kinds in most of the poem. Therefore, the poet was assured of the importance of the homeland place geographically and psychologically, as the poet's home was the place of family happiness; despite the lack of his hand in it.

مقدمة البحث:

يعد ابن زريق البغدادي أحد الشعراء المشارقة العباسيين المقلين؛ فلم يصلنا من شعره إلا قصيدة واحدة له؛ وهي ما أسماها النقاد القدماء بـ (اليتيمة)، وهي تعد من عيون الشعر العربي القديم؛ لما تضمنته من قيم موضوعية وفتية، فهي بحق(يتيمة) قولًا وتفردًا، وقد كتبها ابن زريق حينما رحل عن مسقط رأسه (بغداد) إلى بلاد الأندلس؛ رغبة في تحسين دخله المعيشي، وقد نصحته زوجته الراضية القنوعة بألا يتركها وبلدها؛ رغبة في التخلي عن صعاب السفر والغربة، لكن ابن زريق الزوج المفعم مسؤولية أصرّ على رحيله، فالتقى هناك بالأمير، وعمل بعض الأعمال؛ وحينما أخذ أجرته، إذا هي قليلة جدًّا، لم تكف ثمن غربته أو تحسين حالته الاقتصادية، مما أصابه بالهم والغم، فسطر يتيمته، ثم مات غمًّا، ومن هنا، يأتي دور (المتعالية النصية الشارحة) التي بينت كل هذا من خلال النص النثري التاريخي المَعْنِيّ بتفاصيل ذلك، ولهذا، سيتخذ الباحث من هذين النصين: الشعري لليتيمة والنثري لخبر كتابة القصيدة وتفاصيلها موضوعًا لبحثه، ليتوقف مع بناء السردي وتداخله بين النص الشعري والنصية المتعالية الشارحة لذلك النص النثري التوثيقي.

كلمات مفتاحية:

(بناء السرد، يتيمة ابن زريق، النصية المتعالية، النصية الشارحة)

أسباب اختيار الموضوع:

ترجع أسباب اختيار الموضوع إلى ما يأتي:

١ . عدم وجود دراسة سردية لليتيمة.

٢ . الجمع بين التراث الأدبي والنظريات النقدية الحديثة، بين الأصالة والمعاصرة.

٣ . توافر المعطيات السردية في القصيدة القديمة تأكيدًا على حضور البناء السردي في الشعر القديم.

٤ . كسر الحاجز النفسي . من بعض الباحثين . في الاقتراب من التراث والتخوف من تطبيق المعطيات الحداثية أو نفي إمكانية تطبيق الحداثة على القدم.

منهج الدراسة:

سيعتمد الباحث (نظرية السرد) منهجًا لبحثه، ببيان بعض عناصر البناء السردي في يتيمة ابن زريق، كالزمان والمكان والشخصيات...، بالربط بينها وبين النصية المتعالية الشارحة للنص النثري التاريخي لخبر وفاة ابن زريق والعثور على نص القصيدة، إلى جانب بعض معطيات البنيوية كالمتعالية النصية الشارحة . التي تبين العلاقة بين النص الشعري وما ضمن بالنص النثري . وغيرها، كل إلى جانب المنهج الفني.

الدراسات السابقة:

لم يعثر الباحث على أي دراسة سردية ليتيمة ابن زريق، لكن هناك دراستان عن اليتيمة بمناهج أخرى، هاتان الدراستان نُشرتا بمجلات علمية محكمة، وهما: (تحولات شعرية الاستعذال" تخمين ثقافي في عينية ابن زريق البغدادي: أ.د/ نادية هناوي، مجلة البيان الكويتي . العدد (٦٠٠) . يوليو ٢٠٢٠م) وكذلك : (فراقية ابن زريق البغدادي على ضوء المنهج النفسي: د. علي عبد الظاهر علي عبد اللطيف، مجلة كلية التربية، جامعة عين شمس، العدد الرابع والعشرون . الجزء الثالث . ٢٠١٨م)، وسيفيد الباحث منهما في مواطن من بحثه في الجانب النفسي لابن زريق، وسيضيف الباحث زيادة عنهما منهجية جديدة لنظرية السرد التي لم تطبق على تلك القصيدة.

مصدر عينة الدراسة:

يعد كتاب **(الوافي بالوفيات للصفدي)**"[١] وكذلك كتاب **(مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري)**"[٢] أهم مصدرين للقصيدة، لكنهما يتضمنان تراجم أخرى غير ابن زريق، ولهذا، اعتمد الباحث مرجعًا جاء عن شعراء الواحدة وحدهم، وهو كتاب **(شعراء الواحدة: د. نعمان ماهر الكنعاني)**"[٣]؛ ليكون شعرًا مجموعًا في سفر مستقل، فاعتمده الباحث في عينة دراسته.

خطة البحث: سيجيء البحث في تمهيد مكثف عن حياة الشاعر ومناسبة القصيدة، إلى جانب أهم مصطلحات البحث، ثم يأتي متن البحث، في مباحث ستة، وهي كالآتي:

المبحث الأول . أنماط السرد في يتيمة ابن زريق.

المبحث الثاني . سردية المكان في اليتيمة والنصية الشارحة.

المبحث الثالث . اللغة السردية في اليتيمة.

المبحث الرابع . البناء السردي للشخصيات في اليتيمة والنصية الشارحة.

المبحث الخامس . الزمن السردي في اليتيمة والنصية الشارحة.

المبحث السادس . سردية الصراع بين النص الشعري والنصية الشارحة.

ثم يختم بأهم النتائج، فقائمة المصادر والمراجع، **وفيما يأتي التوقف مع كل هذه العناصر:**

عن الشاعر:

لقد سبق كثيرا من الشعراء كناهم، ومن هؤلاء ابن زريق البغدادي، يرجع موطنه إلى الكرخ، بمدينة بغداد العراقية، واسمه:" أبو الحسن علي بن زريق البغدادي"٤، وقد مدح النقاد القدماء شعره، حتى قيل في قصيدته:" من حفظ قصيدة ابن زريق فقد

استكمل ظرفه"٥، وذلك لأنها حوت كثيرًا من معاني الحب والعاطفة والوفاء والغزل والشكوى واللوم؛ فهي قصيدة "غزل صادق العاطفة، وفيها ألم ولوعة ظاهران وفيها شكوى مريرة، شكوى الزمان والحال، شكوى الحب والفقر والحرمان ومعاكسة الظروف، والقصيدة توحي بخبرة ناظمها وتجاريبه وفهمه للحياة والناس"٦، وستتضح تلك المعاني من خلال معطيات البناء السردي لها، وذلك فيما يأتي:

المبحث الأول . أنماط السرد ونوعه في يتيمة ابن زريق:

أولًا . أنماط السرد في يتيمة ابن زريق:

١ . السرد الإطار/ العام:

لقد ذاع صيت يتيمة ابن زريق في سر كتابة قصيدته اليتيمة إثر رحيله إلى بلاد الأندلس، ويظهر من القصيدة في مطلعها (السرد الإطار)؛ ذلك المطلع الذي يبين التيمة الكبرى الإطارية للنص كله؛ إذ يبدأ الشاعر في مطلع القصيدة بالكشف عن حالته النفسية التي آل أمره إليها إثر رحيله ووصوله إلى بلاد الأندلس؛ فالشاعر في مطلع اليتيمة يستهلها بما يكشف عن مناسبة كتابتها وسببه؛ فيطلب منها، وكأنها حاضرة أمامه، لكنها في الحقيقة حاضرة ذهنيًّا ونفسيًّا في كيان الشاعر وروحه وقلبه، فيتشفع منها طالبًا الرفق، وكأن زوجته ماثلةٌ أمام عينيه، فيقول:

فاستعملي الرفقَ في تأنيبه بدلًا من عذله فهو مُضْنَى القلبِ مُوجِعُه"[٧]

وبهذا كانت الحالة النفسية للشاعر قبل كتابة القصيدة سيئة للغاية؛ فقلبه يتقطع ألمًا وحسرة، ونفسه تعنفه وتلومه، علاوة على ضيق ذات يده التي كان عليها في موطنه؛ بعد أن ساءت ظروفه، ولم تتحسن برحيله، مما كان سببًا في كتابة تلك اليتيمة النفسية الوفائية؛ فكم ترجته زوجته مرارًا ألا يرحل عنها، وقد أقر بذلك، بقوله:

وكمْ تشفَّع بي أن لا أفارقَه وللضروراتِ حالٌ لا تُشفِّعُه"[٨]

لكن الشاعر برر رحيله بأن ذلك ضرورة له؛ فالزوج لا يبوح بكل تفاصيل الأسرة لزوجته؛ لكن ابن زريق أباح بعدما رأى بأم عينه حاله في الغربة التي لا طائل منها سوى الفراق!

٢ . السرد المطمور:

يبدأ ابن زريق قصيدته بكشف اللثام عن السرد المطمور، ذلك السرد الذي يكون " فوق عالم الحكي أو تحته (مطمور فيه) أي السرد الثانوي"[٩] وقد توافر هذا النوع في يتيمة ابن زريق حينما سرد ابن زريق نصائح زوجته ووفائها في جنبات القصيدة كلها، معترفًا بنصائح زوجته؛ ثم يبين حالته النفسية التي آل أمره إليها بعد رحيله عن موطنه إلى الأندلس، فيلوم نفسه ويعاتبها، وكأن زوجتها هي نفسه ذاتها؛ فقد نصحته لكنه لم يصغ إليها، فصدر اليتيمة بحالته النفسية؛ لتصبح التيمة الرئيسة للنص كله واضحة بينة من مطلع اليتيمة؛ فكل ما في متن القصيدة بعد المطلع توضيح وبيان ومحاولة إقناع لذات الشاعر بالتبرير العقلي لقسمة الأرزاق، ومن ثم، جاءت القصيدة مفعمة بالحزن واليأس والتفجع، لفراق زوجته التي تتألم لفراقه ويتألم هو كذلك لفراقها، فما جنت يداه من رحيله مالًا ولا طيب عيش سوى الآهات والأنات، ومن هذا، قوله:

لا يطمئنُّ لجنبي مضجعٌ وكذا لا يطمئنُّ له مذ بِنْتُ مضجعُه"[١٠]

فأصبح الشاعر متحسرًا حسيًّا ومعنويًّا، فصار في غربته لا يصافح إلا وجه ذل وهوان وهم بعد فراق زوجته، فيقول:

اعتضت عن وجه خِلِّي بعد فرقته كأسًا أجرّع منها ما أجرعُه"[١١]

وبهذا يتضح أن أعظم ما خسره الشاعر هو فراقه زوجته؛ رغم أنه حزن على خيبة أمله في التكسب، لكن زوجته أبقى له؛ فنصائحها صحبته حلًّا وترحالًا.

ثانيًا ـ طرفا الحكاية (الراوي والمروي عليه):

ابن زريق يتيمته بحالته النفسية التي يظهر من خلالها أطراف الحكاية، في أول ثلاثة أبيات في مطلع القصيدة (لا تعذليه) وما بعدها، فيقول:

لا تعذلِيهِ فإنَّ العذلَ يولِعُهُ قدْ قلتِ حقًّا ولكنْ ليس يسمعُهُ

جاوزتِ في لومه حدًّا أضرَّ بهِ من حيثُ قدرتِ أنَّ اللومَ ينفَعُهُ

فاسْتعملي الرفقَ في تأنيبه بدلًا مِن عَذْله فهو مُضْنَى القلبِ مُوجِعُهُ"[١٢]

في هذه الأبيات، تبين للمتلقي أن الراوي/ ابن زريق يتمثل من زوجته في غيابها عنه، وكأنها ماثلة أمامه يخاطبها؛ ليؤكد قيمة نصيحتها له؛ إذ إن " وظائف السارد الوضع السردي نفسه، الذي محركاه هما: المسرود له الحاضر أو الغائب أو الضمني، والسارد نفسه"[١٣]، فالمسرود له هنا غائب، وهي زوجة الشاعر؛ وذلك من قوله (قد قلتِ حقًّا ولكن ليس يسمعُه)، فصار الراوي/ السارد حاضرًا وهو ابن زريق، والمروي عليه/ المسرود له غائبًا، وهي زوجة ابن زريق، وما هذا الغياب والحضور في المروي/ الحكاية إلا تأكيدًا لأهمية الزوجة في حياة الشاعر في موطنه وغربته؛ فهي عماد بيته ومدبرة نصحه وقنوعة ذات يده، فيروي عن نفسه حالته النفسية التي آل أمره إليها، مستحضرًا زوجته وكأنها ماثلة أمامه تلومه على ما آل أمره إليه، بقوله: (لا تعذليه فإن العذل يولِعُه)، وليس الأمر كذلك؛ فزوجته غائبة عن الحكاية حضورًا، وزمانًا ومكانًا، لكن الشاعر يبالغ في تأنيب نفسه ولومها وعتابها، ولهذا" وافقها عذلها وناصرها عليه: (قد قلت حقًّا) لكنه في الوقت نفسه استدرك عليها، بأن قول العاذلة كان في زمن فات، وما عاد بالإمكان رده؛ ولهذا عمد في المطلع إلى الفعلية المضارعة؛ ليدلل على درامية العذل، وفَجَائعية تأثره"[١٤]؛ ومما زاد ذلك ألمًا أن زوجته ألحت عليه كثيرًا ألا

يرحل، لكنه لم يأخذ بنصحها، مما جعله يتأثر نفسيًّا بتذكر زوجته ولومه نفسه، بقوله: (جاوزت في لومه حدًّا أضرَّ به)، فصار (مُضْنَى القلبِ مُوجِعُه)؛ فقلبه يتقطع ألمًا وحسرة.

المبحث الثاني ـ سردية المكان في اليتيمة والنصية الشارحة:

أولًا ـ سردية المكان الجغرافي/ الوطن الأم (الكرخ/ بغداد):

لقد عاش ابن زريق مع زوجته في بغداد، يعمل فيها، لكنه أراد أن تتحسن حياته المعيشية أكثر، فقرر أن يرحل إلى بلاد الأندلس/ الموطن الفرعي/ المهجر لعله يجد فيها بغيته من التكسب الوفير، لكنه لم يدرك كلام زوجته التي نصحته بألا يرحل، وهي راضية بما يرزق به زوجها ابن زريق في موطنه الأصيل بغداد؛ فهي موطن أهله وعشيرته، وأصله وفصله.

ويلاحظ أن الشخصيات التي عاشت في المكان/ موطنه الأصيل هي أهم شخصية، إنها زوجته الناصحة الوفية التي صبرت على ذات يد زوجها، ولم تشكُ أو تضجر من قلةٍ أو فقرٍ أو ضيق معيشة؛ فارتباط المكان الأصل بأهم شخصية كوَّن مكانا قلبيًا للشاعر، لكنه اضطر إلى الرحيل، وقلبه يتقطع ألمًّا ووجعًا، فيقول:

هلا أقمت فكان الرشدُ أجمعه لو أنني يومَ بان الرشدُ أتبعه

إني لأقطع أيامي وأنفدها بحسرةٍ منه في قلبي تُقطِّعه"[١٥]

وهنا تتضح القيمة المعنوية للمكان جغرافيًّا ونفسيًّا؛ فالموطن الأصل كان محل السعادة الأسرية للشاعر رغم قلة ذات يده؛ فيتمنى أن لو ظل مقيمًا في بلده ولم يرحل، فمهجره يقطع أحشاء قلبه؛ فالأيام التي قضاها في بلاد الأندلس، ملئت تحسرًا وتألمًا وتعاسة؛ ولذلك" فالمكان الجغرافي هو المكان الذي تصوره القصة المتخيلة؛ فهو معادل

لمفهوم المكان في الرواية، ولا يمكن دراسة المكان الجغرافي بمعزل عن المضمون"١٦، وقد بدا ذلك في الأبيات التي سطرها الشاعر في ذلك.

ثانيًا . سردية المكان المهجر:

بخلاف المكان المهجر بجغرافية جديدة لها طبيعتها الخاصة به، وقد ظن الشاعر أنه سيجد بغيته، ولكن هيهات هيهات! فقد ساءت حالته النفسية أكثر مما كانت في موطنه الأصيل، فصار الوطن المهجر جحيمًا لا نعيمًا، ضِيقًا لا سعة رزق، حتى أودى بالشاعر إلى وفاته، ومن هنا تأكد قيمة المكان الأم؛ فمهما لاقى الإنسان في وطنه الأم من ضيق أو قلة يد؛ فهو أفضل من غيره؛ فالغربة لها ضرائبها.

ثالثًا . بين المكان المغلق/ الوطن والمغلق/ المهجر والنصية المتعالية الشارحة:

لقد عاش الشاعر في منزله بالكرخ ببغداد مع زوجة راضية صابرة قنوعة، لم ينزعج فيه مع تلك الزوجة بتضجر أو شكوى، وإنما كانت أسرة سعيدة راضية، رغم قلة ذات يد الشاعر في الكرخ؛ ولهذا قرر أن يرحل إلى بلاد الأندلس، فاستقر في (الخان"فندق" نزل المسافرين/ مكان مغلق/ المهجر) الذي كتم فيه الشاعر آهاتِه وأناتِه إثر معرفته بما سيتكسبه من مال زهيد بالأندلس، فلن يغير من وضعه الاقتصادي شيئًا، رغم أن الشاعر ترك وطنه وأهله وعشيرته بالكرخ، مما زاد من ألمه وتوجعه بالأندلس، خاصة تذكر الشاعر نصيحة زوجته بألا يرحل؛ فصار المكان المغلق/ المهجر مقر وفاة الشاعر؛ فيعبر عن تلك النفسية، بقوله:

في ذمَّة الله من أصبحت منزله وجاد غيثٌ على مغناك يمرعُه

فسطّر قصيدته في ذلك الفندق الذي صار قبرًا، بعد أن كان مأوى مبيت الغربة؛ وبهذا صار المكان المغلق في الغربة سوداويًّا في حياة الشاعر؛ فقد ترك قصيدته تحت

رأسه في ذلك الفندق، حتى وُجد ميتًّا؛ فالمكان المغلق كان غلْقًا وانتهاء لوفاة الشاعر، بخلاف المكان المغلق الموطن للشاعر بالكرخ الذي اتسم بالسعادة والراحة، وبهذا تتباين المكانية الجغرافية للفندق/ المكان المغلق والنفسية والحسية للشاعر المقفلة ألمًا ووجعًا؛ فالكرخ ببغداد والفندق بالأندلس، والكرخ كان موطن سعادة وراحة وأنس وأمل والأندلس صارت موطن يأس وقنوط وتشاؤم وألم، والكرخ كانت موطن حياة والأندلس موطن وفاة.

هذا إلى جانب دور النصية المتعالية؛ وهي "كل ما يضع النص في علاقة، سواء أكانت واضحة أو خفية بنصوص أخرى، وأحد أنماطها النصية الشارحة، وهي العلاقة الملقبة بـ (التعليق) إنها تربط نصًّا معينًا بنص آخر، يتحدث عنه دون الاستشهاد به بطريقة ضرورية (أي بدون استدعائه)"[١٧]؛ وقد مثل الخبر النثري التاريخي تلك النصية الشارحة؛ فهو وثيقة مكانية جغرافية؛ فقد كان سببلًا لوصول رسول الأمير الأندلسي إلى موطن الشاعر ببغداد؛ فقد " كان في رقعة الرجل: منزلي ببغداد في الموضع المعروف بكذا، والقوم يُعْرَفون بكذا"[١٨]، فابن زريق قد وصف موطنه الجغرافي في الرقعة النصية للقصيدة، إلى جانب وصف ابن زريق لأهله بما عرفوا به بين أهل بلدهم ببغداد؛ فالوثيقة كشفت عن السمات الشخصية للشخصيات الثانوية . عشيرة الشاعر . إلى جانب بيانها للموقع الجغرافي لمسقط رأس الشاعر؛ فلولاها لما عرف موطنه وقومه.

رابعًا . سردية المكان الأم المفتوح وأثره بالتشاكل الحسي والمعنوي:

لقد عاش الشاعر بالكرخ بمدينة بغداد، وهو مكان جغرافي مفتوح؛ فهو مفتوح في حياة الشاعر نفسيًّا على الحقيقة؛ فالكرخ تحول من مجرد مكان جغرافي مفتوح إلى مكان نفسي مفتوح؛ فراحة الشاعر وسعادته بتواجد أسرته وأهله فيه، وقد بين هذا الأثر النفسي لمسقط رأسه، قائلًا:

أستودعُ اللهَ في بَغْدادَ لي قمرًا بالكرخِ من فلكِ الأزرارِ مطلعُه"[١٩]

إلى جانب أن الشاعر ندم على رحيله عن وطنه إلى الأندلس، وبالتالي تأكد للشاعر في غربته أن الكرخ لم يكن مفتوحًا بجغرافية حدوده فحسب، وإنما كان مصدر سعادة وراحة، بخلاف بلاد الأندلس التي كانت سبب ألم الشاعر وتوجعه، حينما تبين له أنَّ تكسبه فيها لن يغير شيئًا من وضعه المادي، فقد كان أسوأ مما كان يحياه بالكرخ.

المبحث الثالث . اللغة السردية في اليتيمة:

أولًا . أسلوبية اللغة الشعرية بين اليتيمة والنصية الشارحة:

لقد بدأ اليتيمة بالأسلوب الاستفهامي الاستعطافي؛ بقوله:**(لا تعذليه فإن العذل يولعه)**، فالشاعر يتمثل من زوجته حضورًا لنصائح زوجته لا لذاتها وشخصها مثولًا، ليبين أن مطلع القصيدة ترج لقلبه أن يتصبر ويتحمل ما لم يسمعه من نصائح زوجته، ثم يكرر ذلك الأسلوب الإنشائي بقوله: **(فاستعملي الرفق في تأنيبه)** ليؤكد لها أنه مقر ومعترف بما كان من وفاء نصحها له، ثم ينتقل إلى الأسلوب الوصفي للمفارقة المكانية النفسية بين الوطن والمهجر؛ فيتخذ أسلوب السرد الخبري ليعلل ويقرر سر بدئه بالاستفهام؛ فهو يصف حالته النفسية التي آل أمره إليها حينما طلب الكف عن اللوم أيا كان مصدره، ومن ثم، غلب السرد الوصفي فيما بعد المستهل لقصيدته، ومن هذا ما عبر به عن تأكيد صدق زوجته في نصحها، لكنه حاول أن يأخذ بالأسباب سعيًا وتكسبًا ليقوم بمهام أسرته وحاجياتها.

ثم يعود الشاعر إلى تكرار الأسلوب الإنشائي الذي يؤكد به نصائح زوجته، في قوله: **(وكم تشبث بي يوم الرحيل)**"[٢٠] ثم يبرهن على خيبة أمله بالأسلوب ذاته، بقوله:**(كم قائل لي: ذقت البين)**"[٢١]؛ فطعم الفراق علقم في نفسه وقلبه، ثم يتحسر على فراق المكان الوطن، قرب نهاية القصيدة:**(هل الزمان معيد فيك لذتنا؟)**"[٢٢]؛ ليسطر تحسره

وحزنه ببيان قيمة وطنه ومسقط رأسه الذي احتضنه منذ نعومة أظفاره، فقد قضى فيه أجمل أيامه. وبهذا تكون القصيدة في سرديتها موزعة بين الإنشاء والخبر؛ فالشاعر مقر بما كان من زوجته، مخبرٌ بأسلوب خبري، ينسجه من خيوط أسلوب إنشائي ليؤكد وفاءها وحبها له.

والملاحظ، أن النصية الشارحة جاءت في الخبر النثري أسلوبًا وصفيًّا إخباريًّا، خالية من الإنشاء؛ فهي وثيقة بيان ووصف لما آل أمر الشاعر إليه.

ثانيًا ـ التناص السردي الوصفي مع القرآن الكريم:

لقد وظف الشاعر في قصيدته التناص مع القرآن الكريم(التناص الإسلامي)؛ ليسطر حقيقة لا شك فيها في أمر (الرزق)، فيقول:

والله قسم بين الخلقِ رزقَهُمُ لمْ يخلقِ اللهُ مَخْلوقًا يُضيِّعُهُ"[٢٣]

فهذا التناص غير مباشر؛ ولعل عدم وروده مباشرًا؛ لأن الشاعر لم يقنع لأول أمره ببغداد وطنه، وإنما أقر بذلك في مهجره، وهذا التناص مأخوذ من قوله تعالى" **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**"[٢٤]؛ فالشاعر يقرر ويقر بتلك الحقيقة بوصفه السردي التقريري؛ ليريح باله فيما صار فيه من هم وغم وضيق رغم أنه رحل بحثا عن الرزق، لكن الشاعر وقتها لم يجد بدًّا من الإقرار بأن الأسباب لن تغني شيئًا عما كتب للإنسان في السماء؛ فرضي بالقضاء؛ فالرزق مقسوم بين العباد.

ثالثًا ـ الانعكاس السردي اللغوي والدلالي بالمفارقة لليتيمة كلها:

لقد اتخذ الشاعر في قصيدته بعض الدوال اللفظية لتكون قنطرة مرور إلى بر المجاز الشعري، من خلال التطابق اللفظي والمعنوي في مواطن عدة، فقد وسمت القصيدة على مدار أبياتها كلها بالمفارقة بين الماضي والحاضر، بين الوطن والمهجر، بين الاستقرار والترحال، بين نصح زوجته وتركه نصائحها؛ وذلك ليبرر الشاعر

للمتلقي سرَّ حيرته وعدم استقرار حالته النفسية؛ فهو في حيرة واضطراب، ومن هذا ما كان من تطابق معنوي ولفظي بين مطلع القصيدة وختامها في بيتين شعريين منهما؛ فهما طرفا النص الشعري كله؛ وبهما حلقة وصل الأبيات لأولها بآخرها؛ فهما كشف وإضاءة للحالة الشعورية لدى الشاعر، ذلكم البيتان هما:

البيت الأول:

ما آبَ من سَفَرٍ إلا وأزْعَجَه رأْيٌ إلَى سفرٍ بالبيْن يجمعُهُ"[٢٥]

البيث الثاني:

علَّ الليالي التي أضنت بفرقتنا جسمي ستجمعني يوما وتجمعه"[٢٦]

في البيت الأول طباق بين كلمتي (أزعجه، يجمعه)؛ فالشاعر لم يكن له مكان نفسي مريح يقر فيه؛ وذلك بسبب بعده عن مكانه الأم (بغداد)، فالتطابق يكشف عن حيرة الشاعر وتعاسته وقلة راحته البدنية والنفسية في غربته، وفي البيت الثاني كله تطابق مع البيت الأول؛ فالشاعر يتمنى في صورة تصويرية لليالي التشخيصية وكأنه إنسان سيصلح ما كان من بعد وألم بينه وبينه زوجته؛ يؤكد هذا، تكرار كلمة القافية على الترتيب:(يجمعه، تجمعه) ليعبر الشاعر أنه لا يحب الفراق ولا البعد عن أهله لكنها سنة الله في كونه؛ بالبحث عن العيش والسعي على الأسرة.

المبحث الرابع ـ البناء السردي للشخصيات في اليتيمة والنصية الشارحة:

أولًا ـ حوارية الشخصيات بين الحضور الحقيقي والذهني:

إن أول ما يلفت الانتباه في مطلع القصيدة هو ركوب الشاعر طريقة القدماء في مخاطبة غيره، على غرار (قفا نبك)؛ فبالرغم من أن القصيدة قيلت في بلاد الأندلس، فإن الشاعر يتخذ من زوجته مخاطَبًا في المطلع، يروي عليها ما يرجوه منها من عدم

مؤاخذة بالكف عن المعاتبة واللوم بما لم يكن في حسبانه؛ إذ ما نصحته به زوجته صار حقيقة في غربته؛ فالأرزاق مقسومة، ولم يقدر للشاعر طيب عيش في غربته.

ولذلك، ظهرت الشخصيتان الرئيستان من سردية ذلك المطلع؛ فالشاعر وزوجته هما مصدر الحكاية وأساسها، ينوب في الحكاية حضورًا الشاعر؛ ومن ثم فإن الأحداث السردية في القصيدة يرويها الشاعر، وهي إحدى المهمات التي تقوم بها الشخصية في النص السردي الشعري؛ ورغم ذلك؛ فإن" الشخصية في النص القصصي يقوم عبْء تنامي النص على كاهلها أو بفعلها، أما في النص الشعري فإن أقصى نمو للشخصية لا يعدو كونها موضوعًا للذات الأولى(السارد الفعلي)"٢٧، ذلك الدور، لا يمكن التقليل منه أو إهماله؛ فالشخصية في النص الشعري هي مصدر الحكاية ونقلها وبيانها.

والملاحظ أن النصية الشارحة بينت ما عاناه الشاعر في غربته؛ فلم يكن قد اشتكى في نصه الشعري من معاملة من يعمل عندهم أجيرًا، لكنه صرح بذلك في النصية المتعالية الشارحة في الخبر التاريخي الذي بين قلة أجرته، وما آل إليه أمره من موته كمدًا، وبهذا يتضح أن الشاعر لم يهنأ بصحبة أو عمل في مهجره.

ثانيًا ـ الشخصية الرئيسية/ السارد الرئيسي للحكاية في اليتيمة:

يتضح من خلال القصيدة أن الشخصية الرئيسة هي الشخصية الساردة للحكاية؛ فالراوي له دور في الحكاية، خاصة إذا كان الراوي (بطل الحكاية)؛ " فتدخلات الراوي في سياق السرد عندما يكون الراوي ممثلا في الحكي أي مشاركًا في الأحداث كبطل، فيمكن أن يتدخل في سيرورة الأحداث ببعض التعاليق أو التأملات، وتكون مضمرة ومتداخلة مع السرد؛ بحيث يصعب تمييزها"[٢٨]، وبهذا تكون الشخصية الرئيسة/ البطل /ابن زريق = السارد؛ فـ "السارد في هذه الحالة مُمَثَّلٌ للنص؛ فالشخصية = السارد في النصوص التي تحمل تجربة (الذات) السارد بشكل واضح؛ إذ تتماس تقنيات النص الشعري في هذه النصوص مع بعض تقنيات كتابة السيرة الذاتية بمفهومها النظري القائم في النصوص الروائية القصصية"[٢٩]؛ فالشاعر هو الراوي لتجربته الذاتية، وعند

التوقف مع طبيعة الشخصية من حيث مشاركتها في الأحداث السردية للنص؛ فإنها جاءت مغايرة لما هو معهود في الشخصيات السردية، التي غالبًا ما يكون فيها الشخصية الرئيسة واحدة أو متعددة حاضرة في السرد؛ فالشخصية الرئيسة في اليتيمة ثنائية أحادية معًا؛ فهي أحادية الحضور الجسدي للشاعر في الأندلس في غياب زوجة الشاعر بتواجدها ببغداد، هذا إلى جانب ثنائية الشخصيات من ناحية الحضور في النص نفسه.

فالشاعر شخصية حاضرة بعدّه الراوي إلى جانب حضور زوجته في النص بما شخص منه الشاعر مرويًّا عليه من خلال ألفاظه بالقصيدة رغم غياب الزوجة بجسدها عن المكان الجغرافي وبقائها في المكان النصي الحواري السردي بالقصيدة؛ فالشاعر حاضر؛ لأنه المبدع الأصلي للنص الرواي له، يتمثل من خلال الحكاية في حضور غيابي لزوجته، من خلال نصائحها، ليسرد باسترجاعه مكانة تلك الزوجة في حياته؛ فهما لا يفترقان حضورًا وغيابًا؛ فرغم بعد الشاعر عن مسقط رأسه لكن حضور زوجته باق في نصه وذاكرته، ومن ثم؛ فإن الشخصية الرئيسة في القصيدة هما الشاعر وزوجته؛ فلا فكاك لواحد دون الآخر، إذ لا يمكن أن يكون الشخصية الرئيسة واحد فحسب؛ وبهذا يخلص الباحث إلى أن الشخصية الرئيسة إحداها حاضر حضورًا حقيقيًّا ولفظيًّا (الحوار/ اللغة) وهو الشاعر، والشخصية الرئيسة الأخرى حاضرة حضورًا ذهنيًّا ولفظيًّا في القصيدة.

ثالثًا ـ الشخصية البطل الفرعي/ الحاضر في النص الشعري:

إن المتأمل للقصيدة كلها، يتأكد له أن زوجة الشاعر هي البطل في الحكاية كلها، وهذا صحيح، باعتبار نصائحها التي وجهتها لزوجها، لكنه لم ينصت إليها، ورغم غياب الزوجة عن المشهد الجغرافي المكاني، إلا أن النص لم يخل سرده من ذكرها؛ فهي التي أثرت في نفسية الشاعر وألهبتها نصائحها، مما دفع الشاعر إلى قول القصيدة ليعبر عما جاش بوجدانه تجاهها، ومن ثم، فالظاهر أن البطل هو الشاعر في

رحلته واغترابه وكده وسعيه بحثًا عن الرزق، لكن في ظهره طوال هذا كله زوجته البطل الغائب جسدًا الحاضر نصحًا وقلبًا؛ فنصائحها ونظرتها المستقبلية هي التي رافقت النص كله، وتأكدت للشاعر وللمتلقين من بعدهما؛ فليت الشاعر بقي في مسقط رأسه، فما طال من سفره إلا الهم والغم والغربة وفي نهاية الأمر الوفاة.

رابعًا . الشخصية المساعدة الغائبة بين النص الشعري و النصية الشارحة:

لا شك أن الرجل الذي أبلغ بوفاة الشاعر كان له دور تداخلي أجناسي بين النص الشعري والخبر النثري لقصة القصيدة؛ فالخانية (المسؤولة عن الخان/ الاستقبال) دلتهم على مكانه بالخان؛" فانتهوا إلى الخان الذي كان فيه، وسألوا الخانية عنه، فقالت: إنه كان في هذا البيت، ومذ أمس لم أره، فصَعِدوا فدفعوا الباب، فإذا بالرجل ميتاً، وعند رأسه رقعة فيها مكتوبٌ، فلما وقف أبو عبد الرحمن على هذه الأبيات بكى حتى اخضلت لحيته، وقال: وددت أن هذا الرجل حيٌّ وأشاطره نصف ملكي"٣٠؛ وبهذا تتضح أهمية ذلك الخبر النثري الشارح لسبب الوفاة ومسقط رأس الشاعر؛ "فالنصية الشارحة هي العلاقة الملقبة عادة بـ (التعليق) إنها تربط نصًّا معينًا بنص آخر، يتحدث عنه دون الاستشهاد به بطريقة ضرورية (أي بدون استدعائه)، بل أحيانا بدون تسميته"٣١، فشخصية (الخانية) في النص النثري هي التي كانت سببًا في العثور على الشاعر وقصيدته، فلولا (الخانية) لما وجد النص نفسه، وإن كان هذا أمرًا خارجًا عن النص؛ لكن تكمن أهميته في سر بقاء النص حتى الآن؛ فالظروف المحيطة بالنص الشعري متعالية نصية نثرية لخبر الشاعر وقصة وفاته والعثور على النص نفسه؛ وبهذا تصبح شخصية(الخانية) شخصية مساعدة في الحكاية بين النصين؛ فكأن تلك الشخصية هي حلقة وصل النصية المتعالية الشارحة بينهما، وسر بقاء النصين؛ فلولاها ما عرفت القصيدة وما ذكر الخبر النثري.

المبحث الخامس ـ الزمن السردي في اليتيمة والنصية الشارحة:

لا يمكن لأي حكاية أن تقف عند حد زمن بعينه، لكنها تتنوع تبعًا لطبيعة الأمنيات والأحلام مستقبلًا، فتأخذ من استرجاعها وسيلة لإضاءة مستقبلها الاستباقي؛ استشرافًا لأحلامها وأمنياتها، لاسيما إن كانت الحكاية ذاتية فردية، ولا أكثر ينبوعًا لتوافر ذلك الزمن السردي مما عايشه ابن زريق في موطنه وغربته؛ مع زوجته حضورًا في موطنه، وتذكرًا وشوقا في غربته إليها؛ وفاء لنصائحها له في موطنه قبل رحلته، هذا إلى جانب اضطراب الزمن السردي في مطلع القصيدة؛ فقد بدأت بالنهاية، وطبيعة أي حكاية (بداية، وسط، نهاية)؛ فالشاعر بدأ بالنهاية؛ لأنها مأسوية، وتلك طبيعة أي قصة أو حكاية؛ إذ إن" الذبذبة بين الماضي والحاضر تظهر أكثر ما تظهر في افتتاحية الرواية؛ ... فيبدأ القارئ من هذه اللحظة، لا يعلم شيئا عما حدث أو عما سيحدث، ولابد أن يعطي بعض المعلومات التي ستفسر له سير القص"[٣٢]، ومن ثم، كان مصدر الذبذبة في مطلع القصيدة متأرجحًا بين الاسترجاع والاستباق خاصة، ولهذا، سيتوقف الباحث عند بعض النماذج السردية للاسترجاع، وذلك فيما سيأتي:

أولًا ـ الزمن السردي بالاسترجاع الداخلي:

يسترجع الشاعر ذكرياته استرجاعًا داخليًّا/ تلك التي أثرت في قلبه لحظة فراق زوجته قبل رحيله إلى بلاد الأندلس، فيقول:

ودَّعْتُهُ وبودِّي لو يُودِّعُني ... صفوُ الحياةِ وأنِّي لا أودِّعُهُ

وكمْ تشفَّع بي ألَّا أفارقَه ... وللضروراتِ حالٌ لا تُشفِّعُهُ

وكم تشبَّثَ بي يومَ الرحيلِ ضُحًى ... وأدْمُعِي مُسْتَهِلَّاتٌ وأدمُعُهُ"[٣٣]

ففي هذه الأبيات استرجاع داخلي؛ حيث يسترجع الشاعر لحظة وداع زوجته له قبل رحيله، مؤكدًا ذلك بالفعل الماضي (ودعته)؛ فقد تحققت لحظة الفراق، فصار وحيدًا في بلاد الأندلس، مُصدع القلب في غربته؛ لاسيما وقد رجته زوجته وألحت عليه ألا يفارق بغداد؛ لكنه أصرّ على رحيله؛ لظروف تحمُّله مسؤولية تجاه ظروف معيشة أسرته، ثم يتذكر وفاء زوجته بدمعاتها التي نزفت ألمًا وشوقا وحزنا على فراقه، فتبادل هو الآخر بدماعاته؛ فتشابكت دموعهما وداعًا وألمًا.

والملاحظ أن هذا الاسترجاع لم يأت إلا في وسط القصيدة؛ فالشاعر مشتت الفكرة والذهن، قلقٌ حيرانٌ أسفٌ؛ ومن ثم لم يكن الزمن طبيعيًّا، ولكن سرديًّا بهذا الاسترجاع ليكشف ذلك عن أحداث أغفلها الشاعر في حكايته، كحديثه عن وصف الرحلة؛ فتلك وظيفة من وظائف الاسترجاع؛ " فإكمال الاسترجاع أو العودة يملأ الثغرات السابقة التي نتجت من الحذف أو الإغفال في السرد"٣٤، وبهذا كان إيراد هذا الاسترجاع وظيفة للتوقف عند أهم لحظة في الحكاية كلها، وهي لحظة الفراق؛ تلك اللحظة التي جيشت عاطفة الشاعر في غربته، فارتجل القصيدة ليعبر عن وفائه لزوجته وما نصحته به حال فراقه.

وإن كان النص الشعري حوى الزمن السردي؛ فإن **النصية الشارحة** للخبر النثري التاريخي كشفت عن الزمن الطبيعي؛ فقد كان للنص التاريخي أثر كبير في التوثيق الزمني الطبيعي لوفاة الشاعر؛ فالنصية الشارحة للنص النثري كشفت عن مكان الشاعر وسبب وفاته ووجود النص بجواره.

ثانيًا ـ استباقية الزمن السردي في اليتيمة:

ذلك النمط الذي يستشرف السارد به مستقبله في حكايته، فيكون شعاع أمل وبريق تفاؤل، خاصة إن كان السارد ذاتيًّا، وتزداد أهميته إن كان ذاتيًّا مغتربًا أمثال ابن زريق؛ فيقول في استشرافه المستقبل، متفائلًا:

لأصبرنَّ لدهرٍ لا يُمَتِّعُنِي به ولا بي في حالٍ يُمَتِّعُهُ

علمًا بأنَّ اصْطباري مُعْقبٌ فرجًا فأضيقُ الأمرِ إنْ فكرتَ أوسَعُهُ

علَّ الليالي التي أضنتْ بفُرْقَتنا جسمي ستجمعُني يومًا وتجمعُهُ"[٣٥]

يحاول الشاعر أن يفرج عن نفسه بما فيه من هموم، بعزيمة الصبر في مستقبله رغم أن ذلك الصبر صعب مذاقه؛ إذ لن يفيد ذلك الصبر الشاعر ولا زوجته؛ متخذًا الشاعرُ في ذلك الصورة الشعرية التشخيصية وسيلة بدالة (الليالي) التي كانت سببًا في فراقه لزوجته، فضنت تلك الليالي بالوصال بين الشاعر وزوجته، كما حالت تلك الليالي دون تواجد الشاعر معها؛ ويبرهن على تلك الأمنية وذلك الأمل الاستباقي التفاؤلي بحكمة ومثل سائر شهير، بأن الأمور إذا ضاقت فستفرج ويكون لها مخرج؛ وهو بذلك متناص أدبيًّا **(تناصًّا غير مباشر)** في قوله:(فأضيق الأمر... أوسعه) مع الإمام الشافعي في قوله:

ولــربّ نازلــةٍ يضــيق بهَــا الْفَتَــى ذرعًا وَعند اللهِ مِنْهَا الْمخْرجُ

ضَــاقَتْ فلمّــا اســتحكمتْ حلقاتُهــا فرجتْ وَكَنتُ أَظنُّها لَاتفرجُ"[٣٦]

فالملاحظ أن ابن زريق، لم يورد تلك الحكمة متصلة المباني في التركيب، ولكنه فصل بتوظيف جملة اعتراضية شرطية: (إن فكرت) ليدلل الشاعر بتلك الجملة الاعتراضية الشرطية على أن تفريج همه لن ينفرج بسهولة، ولكن سيأخذ ردحًا من الزمن حتى تنجلي همومه وآلامه ليعود إلى مسقط رأسه ثانية.

وفي هذه الأبيات . أيضًا . تنصهر العلاقات الزمانية والمكانية لموطن الشاعر وغربته معًا؛ فتتحقق الزمكانية؛ إذ إن" ما يحدث في الزمكان الفني الأدبي هو انصهار

علاقات المكان والزمان في كُلٍّ واحد مُدْرَكٍ ومُشخَّصٍ؛ فالزمان هنا يتكثف، يتراصّ، فيصبح شيئًا فنيًّا مرئيًّا، والمكان أيضًا يتكثف، فيندمج في حركة الزمن، والموضوع بوصفه حدثًا أو جملة أحداث، والتاريخ علاقات الزمان والمكان تتكشف في المكان، والمكان يدرك ويقاس بالزمان"٣٧؛ ومن ثم، اختزل الشاعر في هذه الأبيات خلاصة استرجاعاته الحزينة بمكان غربته . تلك الاسترجاعات التي عاشها في المكان الأم في صورة تفاؤل استباقي للمكان الأم بالرجوع إليه والاستقرار؛ وبهذا تحققت الزمكانية بانصهار استرجاعاته واستباقاته بأحداثهما في ضوء المكان السردي (بغداد/ الأندلس/ الأصلي والفرعي/ الوطن والغربة).

المبحث السادس . سردية الصراع بين النص الشعري والمتعالية النصية الشارحة:

لقد بدأ الشاعر في مطلع قصيدته بمشاعر ملتهبة حزينة، طالبًا من زوجته (معادلا نفسيًّا موضوعيًّا خياليًّا) ألا تلومه، وهذا هو مركز الصراع الذي دارت عليه القضيدة؛ حتى طلب منها . تخيليًّا . أن ترفق به في نصحها، فيقول في البيت الثاني من القصيدة:

جاوزتِ في لومِه حدًّا أضرَّ به من حيثُ قدَّرتِ أنَّ اللومَ ينفعُه

فاستعملي الرفقَ في تأنيبِه بدلًا من عذله فهو مُضْنَى القلبِ مُوجِعُه"[٣٨]

فمطلع القصيدة هو أساس الصراعات الواردة في القصيدة كلها؛ فقد نصحته زوجته ألّا يغادر العراق، ولكنه لم يعبأ بنصحها، ولم يرعه اهتمامًا؛ رغبة منه في تحسن حالته المعيشية الاقتصادية، ومن ثَمَّ، خاب سعيه حينما أتى بلاد الأندلس، فتراكمت صراعات وتداخلت هموم ذكرياته مع نصح زوجته، فتولَّد الصراع النفسي الذي نتج عن الصراع الاقتصادي الذي عاناه الشاعر في موطنه وغربته، هذا إلى جانب الصراع الاجتماعي الذي لاقاه في غربته؛ فلم يكن له صديق يؤنسه، اللهم إلا غرفته في الفندق الذي سكن فيه ليريح جسده.

وقد توافرت صراعات عدة في القصيدة، منها:

أولًا . الصراع الاجتماعي النفسي: لومه لنفسه ولوم زوجته له، وصراعه مع نفسه في غربته، تأكد هذا من أول بيت في النص إلى نهايته؛ فقد سيطر اللوم على نفسية الشاعر طوال النص؛ إذ" وجهت مسارات النص وجهة انفعالية من خلال ثلاثة مسارات:أولها مسار اللوم بالافتتاحية الموضوعية بضمير الخطاب الناهي والهادر(**لا تعذليه)**، وثانيها مسار الهم الذي ينطوي على ضمير التكلم**(كأسًا أجرع منه ما أجرعه)**"[٣٩]، والثالث مسار التشكي الذي ازدرى الغربة، فاستذكر العاذلة/ زوجته مستذكرًا الصحب والوطن(**في ذمة الله من أصبحت منزله)**"[٤٠]، مما أودي بقضاء نحبه همًّا وغمًّا ويأسًا، بينه وبين نفسه في كونه مسؤولًا وراعيًا لأسرته من نفقة وراحة عيش.

ثانيًا . الصراع المكاني (الجغرافي): لم يجد راحة في غربته بخلاف موطنه فالمكان لم يهبه ما شاء إثر رحيله إلى الأندلس، لا راحة ولا مالًا وقد سطر هذا الصراع، بقوله:

هَـلَّا أقمـتُ فكـان الرُّشـدُ أجمعُـه ... لـو أنّنـي يـومَ بـانَ الرشـدُ أتْبعُـهُ

إنِّـي لأقطـعُ أيـامي وأنفـدُها ... بحسـرةٍ منـه فـي قلبـي تُقطِّعُـه

بمـن إذا هجـعَ النـوَّامُ بـتُّ لـه ... بلوعـةٍ منّـي ليْلِـي لسـتُ أهجَعُـه

لا يَطمـئنُّ لجنبـي مَضـجعٌ وكـذا ... لا يَطمـئنُّ لـه مُـذْ بِنْـتُ مَضـجعُه"[٤١]

يؤكد الشاعر كذلك أن زوجته هي الأخرى . شعوريًّا . لم يهدأ لها بال بالمكان الأم؛ فلم تهنأ بنوم؛ قلقًا وحزنًا على هجرة زوجها بالمكان المهجر؛ فقد تشبثت به ألا

يرحل، لكنه رحل؛ فما جنى إلا أن صار الهجوع سمةً ملازمةً للشاعر في مهجره، ولزوجته في موطنها؛ فلم يفد سوى الأرق والهم والتحسر والفراق عن تلك الزوجة الوفية له في حله وترحاله، وكل هذا يبين أن المكان الأم كان هناءة وراحة وسكينة وطمأنينة، بخلاف المكان المهجر الذي كان سببًا للصراع النفسي للشاعر لحاله الذي عليه وتذكره لحال زوجته وهو بعيد عنها.

ثالثًا . الصراع العاطفي: لا شك أنّ بعد الرجل عن أسرته مدة طويلة فوق ستة أشهر، ليس محمودًا لحقوقهم عليه عاطفيًّا وعلاقاتيًّا؛ فلا ذكر بلا أنثى أو العكس، ومن ثم، توافر الصراع العاطفي عند الشاعر في اشتياقه إلى العلاقة الزوجية؛ وذلك من قوله:

لا يطمئنُّ لجنبي مَضجعٌ وكذا لا يطمـــئنُّ لـــه مُـــذ بِنْـــتُ مضـــجعُه"[٤٢]

فقد" اختار الشاعر لفظ (المضجع) من قوله: **(لا يطمئن لجنبي مضجع)** لإلحاح مشهد اللقاء الحميمي والأنس بمحبوبته؛ فشوقه إلى إشباع الغريزة الحسية جعله يختار تللك العبارة دون سواها"[٤٣]، وهذا أمر جِبِليّ فطري فيمن أقام بوطنه، فكيف بمن هاجر إلى غيره؟!

رابعًا . الصراع الاقتصادي: بقلة ذات يد الشاعر، مما كان سببًا في رحيله، فحرص الإنسان وعدم قناعته لن يغنيه، فيقول:

لكـــنهم كُلِّفـــوا حرصـــا فلســـتَ تـــرى مُسْـترزقًا وسـوى الغايـاتِ تُقْنعُـه

والحـرصُ فـي الـرزقِ والأرزاق قـد قُسِمتْ بغْـيٌ ألا إنَّ بَغـيَ المـرءِ يصـرعُه

والـدهرُ يعطـي الفتـى مـا لـيس يطلبُـه يومـا إرثًـا ويمنعُـه مـن حيـثُ يَطمَعُـه"[٤٤]

وقد تيقن الشاعر بعد صراع نفسي اقتصادي أن القناعة العملية هي مصيره، حينما آل أمره إلى قلّة بعد رحيله؛ فقد أتت الرياح بما لم تشتهِ السفن، مما جعله يقنع بالقانون الإلهي، بأن الله قد قسم الأرزاق، كما يحمد للشاعر سعيه وجده على أهله؛ فالأسباب وسيلة للتكسب؛ فرحيل الشاعر كان مظنة تحسن حاله ومعاشه.

خامسًا . الصراع المهني في النص الشعري والمتعالية النصية في النص النثري:

لاشك أن المرء يقرر الرحيل عن وطنه ومسقط رأسه ليتحسن حاله الاقتصادي، ورغم ذلك؛ فإن الشاعر قد رحل إلى بلاد الأندلس، لكنه فوجئ حال تقاضي أجرته، أن مهنته التي يعمل فيها لم تكن أجرتها إلا دراهم معدودة لا تسد حاجته؛ فقد اختبره الأمير الاندلسي بذلك، وقد يقال لعلها بداءة أجرته أول عمله، وسيزيدها الأمير بعد أن يرى منه تفننًا وإتقانًا في عمله؛ فطبيعة كل مغترب اختبار أهل البلد الأصليين له؛ ومن ثم، كان للمتعالية النصية دور في بيان سبب الوفاة وذلك الصراع، فحينما "أراد أبو عبد الرحمن أن يبلوه ويختبره، فأعطاه شيئاً نزرًا، فقال البغدادي(ابن زريق): إنا لله وإنا إليه راجعون! سلكتُ البراريَ والبحارَ والمَهَامِهَ والقفار إلى هذا الرجل، فأعطاني هذا العطاء النزر؟ فانكسرت إليه نفسه، واعتلَّ فمات"[٤٥]، فتعجل ابن زريق قلة أجرته، وتيقن ليأسه وهمومه وغربته أن هذه الأجرة الزهيدة لن تغير وضعه الاقتصادي، مع أنه كان كفافًا في بغداد، فيقارن الشاعر في مفارقة تصويرية لحاله في وطنه وفي غربته:

رزقـــتُ ملكـــا فلـــم أحســـن سياســـتَه وكـلُّ مـن لا يسـوسُ الملـكَ يخلعُـه

ومــن غَــدَا لابِسًــا ثــوبَ النعــيمِ بِــلا شُــكرِ الإلــهِ فعنــه اللهُ ينزعُــه"[٤٦]

فهذا الصراع المهني الذي أقض مضجع الشاعر؛ فتمنى أن لو كان قانعًا شاكرًا بما أعطي في مسقطه ولم يرحل، لكنه لم ينتبه إلى ذلك، فآل أمره إلى الشتات وقلة ذات اليد؛ لأنه لم يحافظ على زوجته القنوعة التي رضيت منه بالقليل، فلم يشكر ويقر بموطنها، وهو في ذلك كله معذور؛ فالزوج الحق هو الذي يتحمل المسؤولية دائمًا؛ فلا يهدأ له بال إلا برؤيته النعيم والراحة لأسرته.

سادسًا . التداخل السردي لصراع الأحداث بين النص الشعري والنص النثري بالمتعالية النصية:

إن المطالع لمناسبة هذه القصيدة في المتعالية النصية الشارحة، التي عُثر عليها بعد وفاة ابن زريق، يجد أن هناك ترابطًا بين النص الشعري والنص النثري الذي بين سر تلك القصيدة؛ فلولا النص النثري التاريخي لما عرف المتلقي ذلك؛ ومن ثمَّ، توافرت العلاقة النصية التي تُعرف نقديًّا عند جيرار جينيت بـ (بالنصية المتعالية)؛ فهي" كل ما يضع النص في علاقة، سواء أكانت واضحة أو خفية بنصوص أخرى"[٤٧]؛ فالنص النثري بيّن للمتلقين . خاصة الذين عثروا على تلك القصيدة . أجلى الغبار عن سر قول الشاعر لتلك القصيدة، وكشف النقاب عن سر وفاته؛ ففي الخبر التاريخي قال: " أبو الحسن علي بن حاتم بن بكير البزاز التكريتي، بتكريت، قال: حدثني بعض أصدقائي أن رجلاً من أهل بغداد قصد أبا عبد الرحمن الأندلسي وتقرب إليه بنسبه، فأراد أبو عبد الرحمن أن يبلوه ويختبره، فأعطاه شيئاً نزرًا، فقال البغدادي: إنا لله وإنا إليه راجعون! سلكتُ البراريَ والبحارَ والمَهَامِهَ والقفار إلى هذا الرجل، فأعطاني هذا العطاء النزر؟ فانكسرت إليه نفسه، واعتلَّ فمات"[٤٨]. وشُغِلَ عنه الأندلسيُّ أيامًا، ثم سأل عنه، فخرجوا يطلبونه، فانتهوا إلى الخان الذي كان فيه، وسألوا الخانية عنه، فقالت: إنه كان في هذا البيت، ومذ أمس لم أره، فصَعِدوا فدفعوا الباب، فإذا بالرجل ميتاً، وعند

رأسه رقعة فيها مكتوبٌ، فلما وقف أبو عبد الرحمن على هذه الأبيات بكى حتى اخضلت لحيته، وقال: وددت أن هذا الرجل حيٌّ وأشاطره نصف ملكي"[٤٩].

ورغم ما شحن به النص الشعري من آلام وأوجاع وهموم؛ فإن النص النثري كان سببًا في جلاء تلك الصراعات الاقتصادية خاصة؛ فقد دفع النص الشعري أمير الأندلس إلى إرسال مال لأسرة ابن زريق؛ "فحمل إليهم خمسة آلاف دينار وسَفْتَجَة*٥٠، وحصلت في يد القوم، وعرفهم موت الرجل"٥١، ومن ثم كان الخبر النثري وسيلة وثائقية لبيان سر ارتجال القصيدة وخبر وفاة الشاعر ومعرفة المكان الجغرافي لمسقط رأس الشاعر، علاوة على النصية المتعالية الشارحة بين النص النثري والنص الشعري في كون النص النثري كان سبيلًا لكشف الصراع الاقتصادي عن أسرة ابن زريق؛ بأن أرسل الأمير مبلغًا ماليًّا و(سفتجة)"حوالة تصرف لأسرة ابن زريق.

أهم النتائج:

لقد توصل الباحث إلى نتائج عدة، منها:

١ . لقد توافر في يتيمة ابن زريق نوعا السرد: الإطار والمطمور؛ وذلك في مطلع القصيدة وبقيتها؛ فالحالة النفسية للشاعر بدت من المطلع متأثرًا بما آل أمره إليه بعد رحيله عن مسقط رأسه.

٢ . عماد الحكاية وطرفاها هما الشاعر وزوجته؛ فالراوي/ ابن زريق يتمثل من زوجته في غيابها عنه وكأنها ماثلة أمامه يخاطبها؛ ليؤكد بذلك قيمة نصيحتها له، فصار الراوي حاضرًا/ الشاعر، والمروي عليه غائبًا/ زوجة الشاعر.

٤ . القيمة المعنوية للمكان الوطن جغرافيًّا ونفسيًّا؛ فالموطن الأصل للشاعر كان محل السعادة الأسرية، رغم قلة ذات يده فيه.

٥ . لم يكن الكرخ مكانًا مفتوحًا بجغرافية حدوده فحسب! وإنما كان مصدر سعادة وراحة بخلاف بلاد الأندلس التي كانت سبب ألم الشاعر وتوجعه.

٦ . القصيدة في سرديتها موزعة بين الإنشاء والخبر؛ فالشاعر مقر بما كان من زوجته مخبرًا بأسلوب خبري، ينسجه من خيوط أسلوب إنشائي ليؤكد وفاءها وحبها له.

٧ . وسمت القصيدة على مدار أبياتها كلها بالمفارقة التصويرية بين الماضي والحاضر؛ ليبرر الشاعر للمتلقي سرَّ حيرته وعدم استقرار حالته النفسية؛ فهو في حيرة واضطراب.

٨ . كشفت النصية المتعالية الشارحة في الخبر التاريخي الذي بين قلة أجرته، وما آل إليه أمره من موته كمدًا؛ فلم يهنأ بصحبة أو عمل أو حياة في مهجره.

٩ . ثنائية الشخصيات في القصيدة؛ فالشاعر شخصية حاضرة باعتباره الراوي إلى جانب حضور زوجته ذهنيًّا باعتبارها مرويًّا عليه؛ فالحكاية لها شخصيتان رئيستان، بطلها الزوجة.

١٠ . مثلت (الخانية) الشخصية المساعدة في الحكاية بين النصين؛ فكأن تلك الشخصية هي حلقة وصل النصية المتعالية الشارحة بينهما، وسر بقاء النصين؛ فلولاها ما عرفت القصيدة، ولما ذكر الخبر النثري.

١١ . لم يأت الاسترجاع الظاهر إلا في وسط القصيدة؛ فالشاعر مشتت الفكرة والذهن، قلق حيران أسف؛ ليكشف ذلك عن أحداث أغفلها الشاعر في حكايته، كحديثه عن وصف الرحلة.

١٢ . تنوعت الصراعات في القصيدة، فكان أكثرها ورودًا الصراع النفسي، إلى جانب الصراعات التي نتجت عنه، كالاجتماعي والاقتصادي والمكاني والعاطفي والمهني.

قائمة . المصادر والمراجع:

أولًا . المصادر:

. القرآن الكريم.

١ . مصدر عينة الدراسة:

شعراء الواحدة: د. نعمان ماهر الكنعاني، وزارة الثقافة والإرشاد . بغداد، ١٩٦٧م.

٢ . المصادر الأخرى:

كنوز الذهب في تاريخ حلب: أحمد بن إبراهيم ابن العجمي (ت: ٨٨٤هـ)، دار القلم، حلب، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ.

الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل الصفدي (ت: ٧٦٤هـ): حققه: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى: دار إحياء التراث . بيروت،١٤٢٠هـ . ٢٠٠٠م.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: أحمد بن يحيى العمري (ت: ٧٤٩هـ)، المجمع الثقافي . أبو ظبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.

. مصارع العشاق: أبو محمد جعفر بن أحمد ابن السراج القاري البغدادي،(ت: ٥٠٠هـ): مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٩م.

موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي التهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون . بيروت، الطبعة الأولى . ١٩٩٦م.

نفح الأزهار في منتخبات الأشعار: شاكر بن مغامس البتلوني (ت: ١٣١٤هـ) حققه: إبراهيم اليازجي، المطبعة الأدبية، بيروت . الطبعة الثالثة، ١٨٨٦ م.

ثانيا . المراجع:

. بناء الرواية" دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ" : د/ سيزا قاسم، مكتبة الأسرة، مصر، ٢٠٠٤م.

. البنية السردية في النص الشعري: د. محمد زيدان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، أغسطس . ٢٠٠٤م.

. بنية النص السردي "من منظور النقد الأدبي": د. حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

. تجليات السرد في الشعر العربي الحديث: د. شوكت المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥م.

. التناص النظرية والممارسة: د. مصطفى بيومي، إفريقيا الشرق . الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٧م.

. ديوان الإمام الشافعي "الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس": إعداد وتعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير . القاهرة، ١٩٨٨م.

. شعرية النص الموازي (عتبات النص الأدبي): جميل حمداوي، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني . تطوان . المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠٢٠م.

. معجم السرديات: محمد القاضي وآخرون، دار محمد علي للنشر، تونس، الطبعة الأولى . ٢٠١٠م.

. المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون . مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، ١٩٧٩م.

ثالثًا . الكتب المترجمة:

. أشكال الزمان والمكان في الرواية: تأليف/ ميخائيل باختين، ترجمة يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٠م.

خطاب الحكاية" بحث في المنهج": جيرار جنيت، ترجمة: محمد معتصم، المجلس الأعلى للثقافة . المشروع القومي للترجمة، القاهرة . الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

. المصطلح السردي: تأليف/جيرالد برنس، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافي . القاهرة، ٢٠٠٣م.

رابعًا . الدوريات:

. تحولات شعرية الاستعذال" تخمين ثقافي في عينية ابن زريق البغدادي: أ.د/ نادية هناوي، مجلة البيان الكويتي . العدد (٦٠٠) . يوليو ٢٠٢٠م.

. فراقية ابن زريق البغدادي على ضوء المنهج النفسي: د. علي عبد الظاهر علي عبد اللطيف، مجلة كلية التربية، جامعة عين شمس، العدد الرابع والعشرون . الجزء الثالث . ٢٠١٨م.

الهوامش:

١ . أورد الصفدي القصيدة كاملة : ٢١/ ٧٧، ٧٨: الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل الصفدي (ت: ٧٦٤هـ): حققه: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى: دار إحياء التراث . بيروت،١٤٢٠هـ . ٢٠٠٠م.

٢ . تضمن قرابة نصف القصيدة: ١٠/ ٥٣٢، ٥٣٣: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: أحمد بن يحيى العمري (ت: ٧٤٩هـ)، المجمع الثقافي . أبو ظبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٣ . جاءت القصيدة فيه: ٩٣ . ٩٨: شعراء الواحدة: د. نعمان ماهر الكنعاني، وزارة الثقافة والإرشاد . بغداد، ١٩٦٧م.

٤ . نفح الأزهار في منتخبات الأشعار: شاكر بن مغامس البتلوني (ت: ١٣١٤هـ)

حققه: إبراهيم اليازجي، المطبعة الأدبية، بيروت . الطبعة الثالثة، ١٨٨٦ م، ص: ٥.

٥ . كنوز الذهب في تاريخ حلب: أحمد بن إبراهيم ابن العجمي (ت: ٨٨٤هـ)، دار القلم، حلب، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ، ٢/٨٠.

٦ . شعراء الواحدة: د. نعمان ماهر الكنعاني، وزارة الثقافة والإرشاد . بغداد، ١٩٦٧م، ص: ٩٤.

[٧] . شعراء الواحدة: ٩٥.

[٨] . السابق: ٩٦.

[٩٩] - المصطلح السردي: تأليف/ جيرالد برنس، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافي . القاهرة، ٢٠٠٣م، ص: ٦٠، ٦١.

[١٠] . شعراء الواحدة: ٩٧.

[١١] . السابق: ٩٧.

[١٢] . شعراء الواحدة: ٩٥.

١٣ . خطاب الحكاية" بحث في المنهج": جيرار جنيت، ترجمة: محمد معتصم، المجلس الأعلى للثقافة . المشروع القومي للترجمة، القاهرة . الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، ص: ٢٦٤.

[١٤] . تحولات شعرية الاستعذال" تخمين ثقافي في عينية ابن زريق البغدادي: أ.د/ نادية هناوي، مجلة البيان الكويتي . العدد (٦٠٠) . يوليو ٢٠٢٠م، ص: ٥٧ .

[١٥] . شعراء الواحدة:٩٧.

[١٦] . بنية النص السردي "من منظور النقد الأدبي": ٥٤.

[١٧] . التناص النظرية والممارسة: د. مصطفى بيومي عبد السلام، إفريقيا الشرق . الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٧م، ص: ٦٦.

[١٨] . مصارع العشاق: أبو محمد جعفر بن أحمد ابن السراج القاري البغدادي،(ت: ٥٠٠هـ): مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٩م، ١/ ٢٢ . ٢٤.

[١٩] . شعراء الواحدة: ٩٦ .

[٢٠] . شعراء الواحدة: ٩٦.

[٢١] . السابق: ٩٧.

[٢٢] . نفسه: ٩٨.

[٢٣] . نفسه: ٩٦.

[٢٤] . سورة الزخرف: ٣٢.

[٢٥] . شعراء الواحدة: ٩٥.

[٢٦] . السابق: ٩٨.

[٢٧] . البنية السردية في النص الشعري: د. محمد زيدان: ١٩٠.

[٢٨] . بنية النص السردي" من منظور النقد الأدبي": ٤٩.

[٢٩] . تجليات السرد في الشعر العربي الحديث: د. شوكت المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥م، ص:٤٠، ٤١.

[٣٠] . مصارع العشاق: ١/ ٢٢ . ٢٤.

[٣١] . التناص النظرية والممارسة: ٦٦.

[٣٢] . بناء الرواية" دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ" : د/ سيزا قاسم، مكتبة الأسرة، مصر، ٢٠٠٤م: ٤٣ .

[٣٣] . شعراء الواحدة: ٩٦.

[٣٤] . المصطلح السردي: ٢٥.

[٣٥] . شعراء الواحدة: ٩٨.

[٣٦] . ديوان الإمام الشافعي "الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس": إعداد وتعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير . القاهرة، ١٩٨٨م، ص: ٤٠.

[٣٧] . أشكال الزمان والمكان في الرواية: تأليف/ ميخائيل باختين، ترجمة. يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٠م، ص:٦.

[٣٨] . شعراء الواحدة: ٩٥.

[٣٩] . شعراء الواحدة: ٩٧.

[٤٠] . السابق: ٩٨.

[٤٠] . تحولات شعرية الاستعذال" تخمين ثقافي في عينية ابن زريق البغدادي: ٦٥ .

[٤١] .

[٤٢] . شعراء الواحدة: ٩٧.

[٤٣] . فراقية ابن زريق البغدادي على ضوء المنهج النفسي: د. علي عبد الظاهر علي عبد اللطيف، مجلة كلية التربية، جامعة عين شمس، العدد الرابع والعشرون . الجزء الثالث . ٢٠١٨م: ص: ٣٥.

[٤٤] . شعراء الواحدة: ٩٦.

[٤٥] . مصارع العشاق: ١/ ٢٢ . ٢٤.

[٤٦] . شعراء الواحدة: ٩٧.

[٤٧] . التناص النظرية والممارسة: ٦٤.

[٤٨] . مصارع العشاق: ١/ ٢٢ . ٢٤.

[٤٩] . المصدر السابق: ١/ ٢٢ . ٢٤.

٥٠ . (السفتجة: كلمة معربة عن سفته بالفارسية، وهي أن يُعطى آخرُ مالا، وللآخر مالٌ في بلد المُعطَي فيوفيه إياه هناك، فيستفيد أمن الطريق، حوالة صادرة من دائن يكلف فيها مدينه دفع مبلغ معين في تاريخ معين لإذن شخص ثالث أو لإذن الدائن نفسه أو لإذن الحامل لهذه الحوالة، (ج) سفاتج: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي التهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون . بيروت، الطبعة الأولى . ١٩٩٦م:١/ ٩٥٦، وكذلك: المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون . مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، ١٩٧٩م، ص: ٤٣٢.

٥١ . مصارع العشاق: ١/ ٢٤.